كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم النفس

دروس في مادة علم النفس النمو والفروق الفردية-2-

د/حاجب سلسبيل

المرحلة الأولى: المرحلة الحسية الحركية

تمهيد:

وتسمى هذه المرحلة أيضا مرحلة الذكاء الحسي الحركي، تمتد من الولادة إلى السنة الثانية من العمر، إذ يتوفر الطفل لحظة ولادته على تجهيز وإمكانات وقدرات جد ضعيفة إذ لا يتجاوز نشاطه عدد قليل من الاستجابات الشرطية، ويعني هذا أنه لا ينجز سوى أفعال معزولة مثل: اللمس والمص والرؤيا والشم والسمع. من هنا فإن التطور ينحصر في نمو حواسه ونشاطه الحركي فهما يسمحان بإمكانية إدراك واكتشاف عناصر وموضوعات الواقع المحيط به وبذلك تشهد هذه المرحلة نمو ذكاء من خلال الإدراك والحركة من أجل تحقيق التكيف المطلوب، إن الذكاء المقصود هنا مرتبط بوجود الأشخاص والأشياء والمواقف لذلك فهو ينحصر في تنسيق الأفعال والحركات حسب تعاقبها دون تدخل التمثلات أو كل ما يرتبط بالوظيفة الرمزية، مما يجعلنا نفهم أن الطفل لا يملك القدرة على التعبير عن أفكاره

ومن ثم يبدو مهما مقاربة النمو المعرفي بالكيفية التي يدرك بها بيئته وبالطريقة التي يؤثر بها في وسطه الخارجي.

ومن خصائص هذه المرحلة: أن كل شيء يتمركز حول ذات الطفل حيث أن الموضوعات لا تملك وجود بالنسبة إليه خاصة في ستة أشهر الأولى من حياته فهو لا يملك وعي بذاته، وهذا يعني غياب التمييز بين الذات والموضوع.

إن الارتكاسات أو المنعكسات أو ردود الأفعال أو الاستجابات الشرطية التي تظهر في هذه المرحلة تتطور عبر سلسلة من الأطوار الجزئية لتتخذ لاحقا نماذج سلوكية منظمة قابلة للتوظيف بكيفية قصدية.

تبدأ أفعال الذات بالتمايز والتنسيق الذي بفضله تظهر العلاقات السببية بين الموضوعات، وتشكل الأخطوطات أداة مركزية ليحدث هذا التنسيق الذي يؤدي إلى تفاعل الذات مع الموضوع.

وقد تم تقسيم المرحلة الحسية الحركية إلى ستة أطوار ندرجها كما يلي:

- **الطور الأول، مرحلة التدريب الانعكاسي:** من الولادة إلى شهر

تميز هذه المرحلة وجود انعكاسات فطرية ووراثية حيث أن الطفل يملك جملة ردود أفعال تكون عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية لكن هذه الانعكاسات في حد ذاتها تعبر عن سلوك تكيفي مع المحيط.

لقد وصف بياجيه هذه المرحلة بأنها مرحلة تدريب وتمرن انعكاسي حيث أن بالممارسة والتجريب والتدريب ينمو المنعكس بشكل أفضل.

– **الطور الثاني، مرحلة التكيفات المكتسبة:** من الشهر الثاني إلى الشهر الرابع، وتسمى أيضا بمرحلة الاستجابات الدائرية الأولية أو الابتدائية، أو مرحلة تكوين العادات الأولية وفيها تؤدي تجربة الطفل بفعل تأثره بالمحيط الخارجي إلى تطوير المنعكسات وتنظيمها، وبالتالي تخليصها من طابعها الفطري الآلي بفضل تكرار الفعل، ويتميز هذا التطور بالاكتساب التدريجي للأفعال التكيفية الناتجة عن تجربته حيث يشرع الطفل في تكييف أخطوطاته الحسية الحركية وملائمتها مع الاستجابات البيئية **مثال:** " حين يمص الرضيع إبهامه بصفة منظمة عبر التنسيق بين اليد والفم يمكن أن نتحدث عن تلاؤم وتكيف مكتسب " ، وبذلك فإن أخطوطة فعل ما تتيح تكرار نفس الفعل أو تطبيقه على عناصر أخرى وموضوعات جديدة.

– **الطور الثالث مرحلة الاستجابات الدائرية الثانوية:** تبدأ من الشهر الرابع إلى الشهر الثامن، في هذه المرحلة يجري الطفل التنسيق بين الرؤية والقبض باليد. فإذا كانت الاستجابات الدائرية الأولية تختص بالجسم وحده كالسمع والبصر فإن ردود فعله هذه تمتد إلى الأشياء الخارجية عبر تكرارها، حيث يشير التكرار إلى عملية الاحتفاظ بنتيجة الفعل التي اكتشفها بالصدفة في الوسط الخارجي. في هذه المرحلة يدرك الرضيع ذاته كذات منفصلة عن العالم الخارجي فهو يقوم بسلوكات قصدية.

- **الطور الرابع، مرحلة تنسيق الأخطوطات الثانوية:** من الشهر الثامن إلى السنة الأولى، حيث يعمد الطفل في هذه المرحلة إلى استخدام القدرات السابقة في مواقف جديدة، أي استعمال وسائل معروفة لديه لبلوغ هدف جديد وعليه فإن تنسيق الوسائل مع الغايات يقتضي عملية الاستعاب باستحضار صورة ذهنية.

يتصف سلوك الطفل في هذا المستوى بالقصدية ونسجل هنا بداية الذكاء العملي الذي يقوم على تحديد أهداف معينة واستعمال الأخطوطات الجاهزة كوسيلة لتحقيقها، وفي هذه المرحلة أيضا فإن النشاط الذهني عند الطفل يقوم على آليتين الاستيعاب والتلاؤم حيث يشتغلان بكيفية متساوية لا يغلب فيها الواحد على الآخر.

- **الطور الخامس، مرحلة الاستجابات الدائرية الثالثة:** تمتد من الشهر 12 إلى الشهر 18، وفي هذه المرحلة يوجه الطفل انتباهه للكيفية التي تختلف بها الموضوعات عن بنيته العقلية الآنية، ويستعمل سيرورة الملائمة بهدف إعادة تشكيل الأخطوطات حيث في هذا المستوى يصبح الطفل قادرا على إدراك العلاقة بين الوسيلة أو الأداة لبلوغ أهدافه (ميلاد نشاط الذهني وبداية التفكير).

- **الطور السادس، مرحلة اكتشاف واستخدام الوسائل الجديدة عن طريق التصور الذهني:** تمتد من 18 شهرا إلى السنة الثانية، تتميز هذه المرحلة بظهور القدرة على إدماج الأخطوطات وحل بعض المشكلات مع إيقاف الفعل والفهم المفاجئ، حيث تشكل هذه المرحلة لحظة انتقال من ذكاء حسي–حركي إلى ذكاء

تمثلي Intelligence représentative، الذي يبدأ مع ظهور الوظيفة الرمزية التي تميز المرحلة الموالية.

في هذا الطور تنتقل القدرة على الاكتشاف مما هو عملي حسي- حركي إلى ما هو تمثلي مبني على التصور وعي العلاقات. هكذا لم يعد حضور الموضوعات ضروري بالنسبة للطفل من أجل حل المشكلات لأنه أصبح قادرا على تمثلها ذهنيا، وحلها في سياق العقلي أكثر من سياق مادي.